

ولبعضهم بعضا متوالية وكلمتهم تحت كلمة واحد بلا مخالفة غير أن النجوع الأربعة هم مخزن الباى ، وغير هؤلاء كالحشم وبني شقران وبني عامر ومجاهر ، وكان ذلك لا يتعقل لعدم تصرف باي الغرب في غير رعيته بكل وجه بعيد أو قريب ، وبعد مكانهم عنه بالأحوال السوية ، إذا حال بينه وبينهم باي المدينة ، فنهض الباى من ساعته وهو في أحوال خرجت عن إرادته وكان ذام حزم وجزم وعزم وكياسة ، فجمعهم وعرفهم بالخبر ، فأشاروا عليه بأنه لا بدّ من فعل هذا الأمر ، فاتفق رأيهم على ذلك وتحققوا بأن الأمر هو ذلك ، وتواصوا / بعدم إفشاء هذا السر بل يجعل ذخرا ، (ص 276) وخرج الباى بجيشه من وهران بجر الأمم فتعمر به أرض وتخلاه به أخرا ، إلى أن وصل وادي دردر وما به من خشفة ، أمر برد أثقال المحلة وضعيفها إلى أبي خرشفة ، وركب أول نهاره وسار في الفيافي طول نهاره ، وبات يسير سيرا شديدا ، ومخزنه بالظفر طامعا وفارحا بالواقعة إلى أن طلع النهار وعيونه ما بين الذاهبة والراجعة ، ثم تحققوا بأنه باي الغرب ، لا تكل لهم السواعد وليس لهم في الحرب إلا الطعن والضرب للقائم والقاعد ، فكان من جملة ما سباه الباى بحيشه نساء شيخ عريب وأولاده ، وأقام ببلدهم يومه والسرور زاده. ثم كر راجعا للمدينة في طرب وابتسام ، فنزلها بعد مسيره ثلاثة أيام ، وهو سائر بين جبلين لأناس يقال لهم أولاد إعلان ، وإذا بهم ابتدؤا الجيش بالضرب في السر والإعلان ، فلما سمع الباى ضرب البارود. ورأى جيوشه حشودا بعد الحشود ، فأخبروه بأنهم يريدون منه الزطاطة لمروهم ببلادهم وكانت تلك عادة الأعراب ، إذا لم يكونوا تحت القاهر الغلاب ، وأيتوني بمن ظفرت به منهم ، وأتوه بعدة رجال فأمر بقطع أيديهم وقال لهم تلك الأجرة التي سألتموניהا ، ولما وصل إلى المدينة أقام بها أياما للراحة وبعث السبي والمال للجزائر صاحب الإحسان ، قال فلما وصلها مكث بها سائلا من مولاه الإعانة والسلامة والعافية ، فصار لا يقدم ناره زناد ، فغزى صهره الشيخ أبا ترفاس ، ولما سمع الدرقاوي بنهوض الباى إليه فرّ هاربا متذلا وأخلا الأرض بين يديه وافترقت من حينها جموعه وجاءته عجلة قواطعه وقمومه فزاد الباى للساحل وأخلا منه ما أخلا ، وخرّب قرية أبي ترفاس واحتطب أجننتها ، ولما فعل بقرية الشيخ أبي ترفاس أفعال الشرور والإفلاس ، قال له أيها الباى لماذا فعلت بنا هذا ونحن من جملة ضعفاء الناس ، فقال له فقال له إني شيخ طلبة لا غير وعائرتني بالتدري ولست من أهله وخرّبت مكاني خرب الله ملكك عن قريب وألبس لك التدري عباية. وهذا أبو ترفاس ولد الشيخ أبي ترفاس الذي غزاه الباى خليل ، فأهلكه الله لرجوعه لتلمسان في السبيل ثم كر الباى لأهله راجعا وهو في هلاك غير أبي ترفاس من درقاوة طامعا ولما وصل لوادي تافنة ، وأصابه الثلج العظيم الذي لم يمطر مثله قط. فمات به كثير الخيل وتعيب كثير الجند ودخل الباى اضطرارا تلمسان ، وافترقت محلته افتراقا مختلفا هامت به في البلدان ، وانكسرت منه الأشجار ، وعرف عند الناس بقصة عام الدّلاج. وأمن على نفسه فضلا عن جيشه من الضرر والنكال ،